صورة المرأة في القصص القرآني بين القبول والرفض

Women's image in qur'anic stories
Between acceptance and rejection.

فريدة بن عاشور *

تاريخ تقديم البحث **2018/04/19** تاريخ القبول **2018/11/15**

ملخص

شغل الحديث عن المرآة كثيرا من الدّارسين فبحثوا صورتها عند الأدباء،ومكانتها في الأديان والشرائع ومدى تمتعها بالحقوق ودورها في بناء المجتمع،والمكانة التي حظيت بها عند مختلف الشعوب والحضارات.على أنّ هذا الحديث كان يصطبغ بمجالِ الدّراسة ويختلف من مجال إلى آخر.وقد خص القرآن الكريم المرأة بعنايته واهتمامه،ودلّ القصص القرآني على حضورها أمّا وأختا وصاحبة.غير أنّ هذا الحضور لم يكن محصورا في اتجاه واحد بل كان موزّعا بين الاستحسان والاستهجان.

وإن كانت صورة المرأة،في الأدب عامّة والشّعر خاصّة،واضحة المعالم يتجاذبها الحضور الجسدي والحضور النفسي،فإنّ صورتها في القرآن الكريم والقصص القرآني خاصّة تختلف اختلافا كبيرا نظرا لطبيعة النّص القرآني باعتباره تشريعا سماويا عالميا متجاوزا لحدود الزمان والمكان وما يفرضانه من خصوصية واختلاف من جهة،وللمكانة التي خصّها الإسلام بها فسلّط الضوء على جوانب وأهمل أخرى من جهة ثانية.وعليه فإننا نسعى لاستخلاص صورة المرأة كما تحدّدت معالمها في القصص القرآني،وذلك بالوقوف على مختلف جوانب هذه الصورة الايجابية منها والسلبية.

الكلمات الدالة: صورة المرأة؛القصص القرآني؛ القبول؛الرفض.

Abstract

The woman has always been a well debated subject by researchers who have studied his image in religions and legislations, her rights, her role in society and the place she has been granted by different peoples and civilizations. This debate is closely related to the fields of study, and differs from one area to another.

The Qur'an granted the woman interest and consideration, as the Qur'anic story "Qasas" proved her presence as mother, sister and spouse.

But this presence is not limited to a single approach; it is divided between approval and disapproval.

If the image of women through literature in general and poetry in particular is clearly defined, and has no tension between physical presence and psychological one, her image in the Holy Qur'an and Qur'anic stories "Qasas" is completely different, and it is related to the nature of the Qu'ranic text as a universal divine legislation, unlimited in time and space, which requires difference, even specificity.

On the other side it is due to the place that Islam has granted her, by highlighting some aspects and neglecting others.

Therefore, we will try to reconstruct the image of women as it emerges through the Qur'anic stories "Qasas" by determining its various positive and negative aspects.

Keyboard: qur'anic stories ;women's image ;acceptance ;rejection.

* قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الأداب واللغات ، جامعة 20أوت 1955 سكيكدة

المنارة للاستشارات
www.

مقدمة

خصّ القرآن الكريم المرأة بعنايته واهتمامه،ودلّ القصص القرآني على حضورها أمًّا وأختا وصاحبة. غير أنّ هذا الحضور لم يكن محصورا في اتجاه واحد بل كان موزّعا بين الاستحسان والاستهجان.ذلك أنّ القرآن الكريم لم يقدّم لها صورة ايجابية فحسب،بل عرض صورتها بوجهيها الإيجابي والسلبي.

وإن كانت صورة المرأة،في الأدب عامّة والشّعر خاصّة،واضحة المعالم يتجاذبها الحضور الجسدي والحضور النفسي،فإنّ صورتها في القرآن الكريم والقصص القرآني خاصّة تختلف اختلافا كبيرا نظرا لطبيعة النّص القرآني،باعتباره تشريعا سماويا عالميا متجاوزا لحدود الزمان والمكان وما يفرضانه من خصوصية واختلاف من جهة،وللمكانة التي خصّها الإسلام بها فسلّط الضوء على جوانب وأهمل أخرى من جهة ثانية.

وإننا نسعى من خلال هذه الورقة البحثية لاستخلاص صورة المرأة كما تحدّدت معالمها في القصص القرآني،وذلك بالوقوف على بعض جوانب هذه الصورة الإيجابية منها والسلبية.وقد تراءى لنا إمكانية مقاربة هذا الموضوع من خلال الإجابة عن التساؤلات الآتية:

-ماهي خصوصية القصة القرآنية؟

-ماهي خصوصية صورة المرأة في القصص القرآني؟

-ماهي صورة المرأة الإيجابية؟

-ماهي صورة المرأة السلبية؟

-فيم اختلف القصص القرآني في رسمه لصورة المرأة؟

وسنحاول الإجابة عن هذه التساؤلات من خلال الوقوف مع بعض القصص القرآنية التي كان حضور المرأة فيها واضح المعالم بتفهم معانيها وإدراك غاياتها،واستقصاء ملامح صورة المرأة الايجابية منها والسلبية.

وقبل أن نقف على جوانب من صورة المرأة،نمهّد بجانب نظري نؤسّس من خلاله لمفهوم القصة والقصة القرآنية وخصوصيتها،وبعدها نعرض لخصوصية صورة المرأة في القصص القرآني.

المنارة للاستشارات
www.r

1-مفهوم القصة:

تستمدّ القصة القرآنية قدسيتها من قدسية القرآن الكريم،وقد اتُخذت وسيلة لخدمة الدّعوة الإسلامية وعلى مستويات متعدّدة،فكان لها أثرها الواضح وقوّتها التي لا تُنكر.لذلك نجدها قد شغلت مساحة واسعة في النّص القرآني ممّا يدلّ على أهميتها وخطورتها وصلاحيتها ،إلى جانب المكانة التي احتلتها في إعجاز القرآن،والوظيفة التي أدتها في الدّعوة والرسالة[1].

وإن كنا لا نجد في القرآن الكريم مصطلح "قصة"فإننا نجد كثيرا من مشتقاتها نحو: قصّ،نقص،تقصص ،وغيرها. فالكثير من هذه الألفاظ مبثوث في آي القرآن الكريم،ومنها قوله تعالى: ﴿**لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ**﴾[2] وقوله أيضا:﴿**فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾[3].

والقصة في معناها اللّغوي ترتبط بإيراد الأخبار وتتبّع الأحداث،فقد ورد في لسان العرب((القصة:الخبر وهو القصص.وقصّ عليّ الخبر يقصّه قصّا وقصصا:أورده.والقصص:الخبر المقصوص..والقصص،بكسر القاف:جمع القصة التي تكتب..والقاصّ الذي يأتي بالقصة على وجهها كأنّه يتتبع معانيها وألفاظها))[4].ففي القصة يقوم القاص بتتبع الألفاظ والمعاني التي تنسج أحداث القصّة من البداية إلى النهاية،ويشبه هذا التتبع تتبع الأثر واقتفائه مثلما يتّضح من قولهم((قصصتَ الشّيء إذا تتبعت أثره شيئا بعد شيء،ومنه قوله تعالى:وقالت لأخته قصّيه،أي اتبعي أثره))[5].وإذا ربطنا تتبع الأثر بالقصّة نفهم منها تتبع الأخبار والأحداث.والقصة القرآنية هي تلك القصص التي ورد ذكرها في القرآن الكريم من قصص الأنبياء والرّسل والصالحين،وغيرهم من الأمم الغابرة والبائدة .قال تعالى:﴿**وَرُسُلاًقَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَمِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا**﴾[6].

فالقصص القرآني يتحدّد مجاله أساسا بأخبار الأمم السّابقة،وهو ما أكّده القرآن الكريم في مواضع متعدّدة،منها قوله تعالى:﴿**كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا**﴾[7] ويقترن ذكر القصص في القرآن الكريم بالأنباء والأخبار في مواضع كثيرة،نورد منها على سبيل التمثيل لا الحصر قوله تعالى:﴿**وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ**﴾[8] وقوله:﴿**نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾[9] وقوله: ﴿**ذَلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُ**

المنارة للاستشارات
www.r

عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾[10]. وقوله تعالى:﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾[11].

وإن بدا لنا أنّ استعمال الأخبار والأنباء يُحيلنا إلى الحديث عن الأمم السّابقة،فإنّ المتعمقين في البحث يقرّون بوجود فرق بينهما.فإن كان القرآن الكريم قد استعمل الخبر والنبأ بمعنى التحدث عن الماضي،فقد فرّق بينهما في المجال الذي استعملا فيه،فاستعمل النبأ والأنباء في الإخبار عن الأحداث البعيدة،زمانا أو مكانا،في حين استعمل الخبر والأخبار في الكشف عن الوقائع القريبة العهد بالوقوع،أو التي لا تزال مشاهدها قائمة ماثلة للعيان[12].وبالتالي يكمن الفرق بينهما من حيث الدّلالة الزمنية،فيستعمل النبأ في الأحداث القديمة جدا،والخبر في الأحداث الأقرب في الوقوع من زمن الرّسول محمد صلى الله عليه وسلم.

والقصص القرآني يقف دليلا على مصدره الإلهي،ووجها من وجوه إعجازه،ذلك أنّ القرآن يحتوي على كثير من قصص الأمم الغابرة والأنبياء الأوّلين،بعضها أقدم من زمن الرّسول صلى الله عليه وسلم بعشرات الآلاف من السنين،وبعضها أقرب منه.وهذه القصص لا يمكن أن يكون الرّسول قد افتراها من عند نفسه،لأنّ العقل البشري يعجز عن اختراق حُجُب الغيب للكشف عما جرى في الأزمنة السّحيقة،فإن ادّعى أحد ذلك فلا بدّ أن يظهر كلامه خياليا شبيها بالأساطير والخرافات[13].وفي ذلك يقول الله تعالى:﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[14].

2 -خصوصية القصة القرآنية:

عرف العرب القصة منذ القديم،وإن لم تكن بالشّكل الذي نعرفه الآن،وقد بدأت تتبلور منذ عصر ما قبل الاسلام وتتعدّد التعريفات الاصطلاحية لها،غير أنّها لا تكاد تخرج عن كونها:((فن أدبي يتناول حادثة أو مجموعة حوادث تتعلّق بشخصية أو مجموعة من الشخصيات الإنسانية،في بيئة زمانية ومكانية ما،تنتهي إلى غاية أو هدف بنيت من أجله القصة بأسلوب أدبي ممتع،كما أنها تجمع بين الحقيقة والخيال))[15].وإن كان هذا يحدّد تعريف القصة في مفهومها العام،فإن القصة القرآنية،وإن كانت تشترك مع القصة الفنية في بعض العناصر

المنارة للاستشارات
www.r

كالحدث والشخصيات،فإنّها تختلف عنها في نواح كثيرة ترتبط بطريقة العرض،والغاية والصّدق وغيرها،وهي خصوصيات استمدتها من خصوصية القرآن الكريم.

فالقصة القرآنية غير القصة الفنية،ذلك أنّ((القصة في القرآن ليست عملا فنيا مستقلا في موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه.كما هو الشّأن في القصة الفنية الحرة،التي ترمي إلى أداء غرض فني طليق،إنما هي وسيلة من وسائل القرآن الكبيرة إلى أغراضه الدينية.والقرآن كتاب دعوة دينية قبل كلّ شيء،والقصة إحدى وسائله لإبلاغ الدعوة وتثبيتها))[16].

واتكاء القرآن الكريم على القصة في تبليغ الرسالة وتثبيت الدعوة لدليل على قدرتها على التأثير في نفوس المتلقين؛ذلك((أنّ للقصة تأثيرا نفسيا وجدانيا ذا طابع خاص لما فيها من عرض حيّ للفكرة والغرض مجسّم في أشخاص يتحركون ويتكلمون ويتحاورون،وفي أحداث تبثّ فيها الحياة،فتعرض أمام المتلقى كما لو كانت ماثلة أمامه وإن كانت لأقوام مضووا))[17].

وترجع قدرة القصص القرآني على التأثير في النّفوس إلى طريقته المميزة في عرض الأحداث وتقديم الشّخصيات، حيث لم يكن القصص القرآني كلّه يجري على وتيرة واحدة،ويُعرض بالطريقة ذاتها ممّا يوحي بالرتابة،ويبث الملل في النّفوس،وإنما كان يعرض بطرق مشوّقة ومختلفة فـ((من القصص القرآني ما تمرّ فيه المشاهد قصيرة وبسرعة خاطفة.ومنها ما تمرّ فيه طويلة وفي تؤدة،وذلك بالقدر الذي يتّفق والغرض الديني منها،ويتناسق مع السّياق الذي عرضت فيه.ولكنّها في الحالين تضطلع الألفاظ المعبرة فيها عن مختلف العواطف والانفعالات،ويقوم تصوير المشاهد والشّخصيات بدور الإحياء والتشخيص والحركة،فإذا المعنى المجرد هيئة ماثلة وإذا الحالة النفسية لوحة شاخصة،وإذا الحادثة المعروضة مشهد يجري))[18].

وبصدد الحديث عن التصوير الفنّي في القصة القرآنية يقول سيد قطب:((إنّ هذا التصوير في مشاهد القصة ألوان:لون يبدو في قوّة العرض والإحياء.ولون يبدو في تخييل العواطف والانفعالات.ولون يبدو في رسم الشخصيات. وليست هذه الألوان منفصلة،ولكن أحدها يبرز في بعض المواقف ويظهر على اللّونين الآخرين،فيسمى باسمه.أما الحق فإنّ هذه اللمسات الفنية كلها تبدو في مشاهد القصص جميعا))[19].

المنارة للاستشارات
www.

وتتميّز القصة القرآنية عن القصة الفنية بجملة من الخصائص حدّدها بعض الدارسين فيما يأتي[20]:

-القصة القرآنية قصة حقيقية واقعية بعيدة عن الخيال بما تجسده من واقعية الحدث وواقعية الحوار.

-البعد عن الغموض أو الايهام استنادا إلى طبيعة القرآن الكريم باعتباره دعوة بلاغ وإبلاغ وبيان وتبيين.

-تخطي حدود الزمان والمكان حيث إنّ كثيرا من القصص القرآني يعرض الحدث مجردا من الزمان والمكان،وأحيانا يعدل عن ذلك إذا كان تحديد الزمان أو المكان يرتبط بتفسير الأحداث أو تأكيدها.

-العقيدة الاسلامية تشملها وحدة واحدة تجمع جوانبها وأبعادها،هي وحدة الوجود،ووحدة الخالق،ووحدة المشرّع،فالدين كله موحد الأساس فضلا عن كونه من عند إله واحد.

-القصة في القرآن الكريم موجهة لخدمة الغرض الديني،فالقرآن ليس كتاب قصص للتسلية بل هو كتاب دين وتربية وتوجيه.

ولعلّ أكثر ما يصنع خصوصية القصص القرآني بغض النّظر عن مصدره،هو حقيقته وواقعيته وجدّيته.فلو أخذنا أي قصة من قصصه لما وجدنا فيه شيئا يشبه الخيال أو يلتبس بالأساطير والخرافات،بل تبدو كلّ قصة من قصصه حقا،تتوافق مع المنطق والعقل،ونجدها كلّها هادفة،تزخر بالعبر والمواعظ والأدب[21].

2-خصوصية صورة المرأة في القصص القرآني:

تمثّل الشخصية إحدى العناصر الأساسية في القصة القرآنية،نظرا لما تقدّمه من دور في إبراز الغاية من إيراد هذه القصة،وعلى تعدّد القصص في القرآن الكريم تعدّدت الشّخصيات وتنوّعت واختلف حضورها تبعا للغاية التي وجدت لأجلها،ولأجل ذاك نجد أنّ الأشخاص الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم مختلفون،منهم الأخيار ومنهم الأشرار،غير أنّهم لم يكونوا مقصودين لذاتهم من حيث هم أشخاص تاريخيون،وإنما يعرضهم القرآن كنماذج بشرية في مجال الحياة على اختلافها؛ذلك أنّ الشخصية في القصة القرآنية يُنظر إليها باعتبار

المنارة للاستشارات
www.m

الدور الذي تؤديه كشاهد من شواهد الإنسانية في قوّتها أو ضعفها،وفي استقامتها أو انحرافها،وفي هُداها أو ضلالها،وفي رشدها أو غيّها،وفي حكمتها أو سفاهتها[22].

ولأن الحياة انبثقت عن رجل وامرأة،واستمراريتها مرهون بالجنسين معا؛إذ لا تستقيم الحياة بإقصاء أحد الطرفين، كذلك كانت القصة القرآنية حافلة بحضور المرأة إلى جانب الرّجل،وفي صور متعدّدة:أمًّا وأختًا وزوجةً.فالمرأة التي أكرمها الإسلام وأعاد لها مكانتها ظهرت في القصص القرآني((كإنسان لها شخصيتها التي تعبر عنها بالقبول والرّفض، والفكر المستقل،والإرادة المتحرّرة،وكامرأة لها خصائص أنوثتها))[23].

وبالنّظر إلى الشّخصيات الوارد ذكرها في القصص القرآني تراءى لنا أنّ تفاصيلها تقلّ وملامحها تكاد لا تبين؛ حيث نلحظ أنّ القرآن الكريم لا يقدّم وصفا تفصيليا لشخصياته،خاصّة من الجانب الفيزيولوجي،وإنما يركّز على بعض التفاصيل التي تخدم السّياق العام للقصة،فالقصص القرآني((لم يُعن برسم الخطوط الشكلية للشخصية،وإبراز ملامحها الخارجية..لأنّ ذلك كلّه لا يخدم أي غرض ديني من أغراض القصة القرآنية،وإنما يكشف القرآن عن مزاج الشخصية، وعن دوافعها وانفعالاتها وسلوكها من خلال الوصف أو حكاية الأقوال أو الأحداث بصورة عرضية لم تقصد لذاتها بالأصالة))[24].ومن هنا يتضح أن القرآن الكريم لا يترك الصفات الجسدية تطفو على السطح،وإنما يفتح المجال للجانب النفسي وبقدر محدود.

وهو الأمر الذي يظهر جليا عند بحثنا صورة المرأة في القرآن الكريم؛حيث لا تحضر صورة المرأة في القصص القرآني كما اعتدنا حضورها في النّصوص الإبداعية الشّعرية منها والنثرية،منذ عصر ما قبل الإسلام وإلى الآن؛حيث ألفنا الأدباء يقدّمون لها صورة بوجهين:أحدهما جسدي وثانيهما نفسي،ويختلف حضور الجانبين من مبدع إلى آخر.أمّا في النّص القرآني فالأمر يختلف تماما،إذ لا تُستحضر المرأة لإضفاء مسحة جمالية على القصة من خلال التركيز على مواصفاتها الجسدية،أو بالتركيز على ما يثيره حضورها من تحريك الأهواء وتأجيج العواطف وغيرها مما نلمحه في القصص الفني.فـ((المرأة في القصص القرآني لا تستجلب لغاية غير العبرة والعظة،ولا تأخذ مكانا في القصّة إلا حين يكون درسا مستفادا في الدّعوة إلى الخير والعدل والإحسان،وفي التنفير من الشّر والبغي والعدوان))[25].

المنارة للاستشارات
www.

ومنه نستنتج أن حضور المرأة في القرآن الكريم ليس مقصودا لذاته،كونها امرأة فحسب،وإنما حضورها مرهون بغايته والمقصد من استحضارها ،فـ((وجود المرأة في بعض القصص القرآني لم يقصد به الاستثارة أو الترفيه،أو إشباع بعض الميول،كما نجد ذلك في القصص الإنساني العاطفي ،وإنما لأنّ الحدث استدعى وجودها بصورة تلقائية،فتؤدي دورها في القصة كامرأة لها عواطفها ومشاعرها الخاصّة،أو كإنسانة لها شخصيتها المتميزة،وذاتيتها المستقلة.فلا يضفي القرآن على وجودها ألوانا زاهية جذابة،ولا يسلّط عليها أضواء أكثر مما تقتضيه طبيعة المشهد))[26].

وإضافة إلى عدم التركيز على تقديم الملامح خاصّة الجسدية منها،نجد القصص القرآني لا يعنى بذكر اسم المرأة مصرّحا به،وإنما يذكرها استنادا إلى وضعيتها الاجتماعية،وبنسبتها إلى غيرها،فإن كانت متزوّجة فهي امرأة فلان كامرأة نوح وامرأة عمران،وامرأة فرعون،أو إلى ابنها كأمّ موسى.

فالقصص القرآني تجاوز عن ذكر المرأة باسمها على اعتبار أنّ التسمية لا تخدم غاية محدّدة وبالتالي تجاوز التخصيص إلى التعميم،وانطلق من النّموذج الخاص إلى النّموذج العام،فهو لم يذكر المرأة باسمها طالما لا توجد غاية من تحديدها بذكر اسمها.فالقرآن لم يغفل ذكر المرأة باسمها إلاّ حين لم يكن للاسم غرض خاص يتعلّق به،من حيث هو في ذاته تلك.وذكر المرأة دون تعيينها بالاسم إنما يراد به التعميم،بحيث تكون هذه المرأة دالّة على جنسها كلّه في حيّز الحكم الذي أناطه القرآن بها،أو الوضع الذي وضعها فيه[27].

وقد اشتمل القرآن الكريم على قصص كثير من النّساء،لكنّه لم يصرّح باسم امرأة إلاّ عند الحديث عن مريم،وإن وردت منسوبة أيضا إلى أبيها في قوله تعالى:﴿**وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا**﴾[28] ،وإلى أخيها في قوله تعالى:﴿**يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا**﴾[29].**والله عزّ وجلّ حين ذكر مريم باسمها دون النساء جميعا،فقد أهّلها لتتبوأ مكانة دونهنّ.**

إنّ الله قد اصطفى آل عمران ضمن عباده الأخيار كما ورد في قوله تعالى:﴿**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾[30].ومريم،هي الأخرى،من

المنارة للاستشارات
www.m

آل عمران،وقد حظيت باصطفاء الله لها دون النّساء جميعا﴿**وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ**﴾[31].

ومريم التي وقع الاختيار الرّباني عليها لم تكن كباقي النّساء،بل كانت نموذجا نسائيا فريدا متميزا رفعها فوق نساء الأرض والدّنيا جميعا.إنّها امرأة واحدة بين نساء العالمين جميعا،تلك التي كان لها هذا الشّأن،ولو أغفل ذكر اسمها لفهم أنّها مجرّد امرأة وكفى،ولكنّها ليست كذلك،إنّها امرأة أراد الله سبحانه وتعالى أن يختصها بهذا الفضل العظيم،وأن يجعلها وابنها آية للعالمين[32].

3-صورة المرأة في القصص القرآني:

اتضح ممّا سبق أنّ المرأة تحضر في القرآن الكريم صورة عامّة،غير محدّدة الملامح والتفاصيل شأنها في ذلك شأن شخصيات القصص القرآني،وغالبا ما لا تُحدّد حتّى بذكر اسمها،وتفسير ذلك أنّ المرأة تحضر في القصص القرآني كيانا إنسانيا عامًا لا يقف عند امرأة بعينها،بل يحضر نموذجا لكثير من النّساء،فتذكر المرأة دون أن تحدّد بذكر اسمها((لتكون هكذا علم جنس للمرأة ،من حيث هي ذات مؤهلة بكلّ ما يؤهّل به الرّجل من قوى عاقلة مريدة،إن شاءت أن تهتدي كانت من المهتدين،وإن شاءت أن تضّل كانت من الضّالين))[33].

وإذا كانت أغلب الدّراسات،التي أثارت الحديث عن المرأة في القرآن الكريم،تناولتها من خلال الحديث عنها من زاوية خاصّة تنحصر في تحديد الحقوق والواجبات.فإنّنا نحاول في هذه الورقة البحثية أن نتناول صورة المرأة كما استحضرها القصص القرآني عندما قدّمها نموذجا إنسانيا عامًّا يتجاذبه القبول والرّفض تبعا لطبيعة النّفس الإنسانية،في كلّ مكان وزمان،والتي تتصارع فيها نوازع الخير والشّر.وإنّ الصورة التي استحسنها القرآن وزكّاها وحظيت بالقبول هي ما نتناولها ضمن الصورة الايجابية أمّا الصورة التي استنكرها وقوبلت بالرّفض هي ما تمثّل الصورة السّلبية،على أنّنا سنثير الحديث عن بعض الصّفات من خلال نماذج بشرية قدّمها القصص القرآني بغية الاقتداء بها،في جانبها الايجابي،والابتعاد عنها في جانبها السلبي.

1-الصورة الايجابية:

المنارة للاستشارات
www.r

إنّ صورة المرأة التي حظيت بالقبول هي تلك الصورة التي اتصفت بسمات ايجابية،وجسّدتها نماذج بشرية مختلفة،كان لها دورا فعّالًا بالنسبة لذاتها،أو المجتمع الذي عاشت فيه.وقد تميّزت هذه الشّخصيات بسلامة التفكير،والقدرة على اتخاذ القرار السّديد،وانتهاج السلوك القويم تماشيا مع الفطرة السّليمة والشريعة الربّانية الحقّة،ولذلك استحقت أن ينوّه القرآن بها ويخلّد ذكرها.

وفيما يأتي سنعمد إلى عرض هذه الصّفات استنادا إلى الشّخصيات التي اتصفت بها وجسّدتها في واقع حياتها لتتحوّل إلى نموذج أمثل للسلوك السّليم.

-الحكمة:

ترتبط الحكمة بالعقل الذي يأتي في صدارة الصّفات التي ترتقي بالإنسان لأنه أساس الصّلاح كلّه.وقد برزت المرأة في القصص القرآني شخصية حكيمة رزينة،لها القدرة على إعمال عقلها في مختلف الأمور،فهي ((انسان عاقل رشيد،يزن الأمور بعقله،ويتعرّف مواقع الخير ببصيرته،ثم إلى جانب هذا العقل وهذه البصيرة إرادة قاطعة،ورأي جميع، يقهر الحدود،ويحطّم القيود،ليعبر عن مشيئته وإرادته على الوجه الذي شاء وأراد..وهي لهذا مناط للتكليف،وأهل للثواب والعقاب..شأنها شأن الرّجل سواء بسواء))[34].

ويتجلى نموذج المرأة العاقلة الحكيمة في نموذجين اثنين ذكرهما القرآن الكريم وهما:ملكة سبأ وامرأة فرعون.

ارتبط الحديث عن ملكة سبأ بقصة سيدنا سليمان عليه السلام،ويبدأ الحديث عنها على لسان الهدهد الذي تأخّر عن سيده سليمان،ولمّا تفقّده ولم يجده عزم أن يعاقبه إن لم يكن لغيابه سبب مقبول،ويخبرنا الله تعالى عن ذلك فيقول:

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾[35].والملاحظ أن هذه المرأة لم تذكر باسمها،وإنما عُيّنت بميزة خاصة يجسدها قوله"امرأة تملكهم" أي تتولى شؤون مملكتهم.فهي ليست امرأة من عامّة النّاس،بل هي تنعم

المنارة للاستشارات
www.m

بمنصب قيادي،قلّ أن يظفر به غيرها حتى من الرّجال.وهذه الملكة وقومها قد زاغوا عن الفطرة السليمة وتحوّلوا إلى عبادة الشّمس دون الواحد القهار.

وتظهر لنا حكمة هذه المرأة وقدرتها على إدارة شؤون مملكتها حتّى في أصعب المواقف عندما يراسلها سيدنا سليمان طالبا منها العودة إلى الدّين القويم والانصياع إلى أمر الله تعالى،فنجدها تتلقّى الأمر برباطة جأش ونفس قوية وتستفتي قومها في الأمر﴿**قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ**﴾[36].فهي بسلوكها هذا تؤكّد على أنّها لا تمارس على قومها حكما استبداديا تتفرّد فيه باتخاذ القرارات،بل نجدها تشاورهم في الأمر وتشركهم في اتخاذ قراراتهم المصيرية.وعندما يذكرونها بقوّتهم وشدّة بأسهم تظهر خوفها وغيرتها على مصير شعبها؛حيث﴿**قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ**﴾[37].فهي تشفق على قومها باعتبارها ولية أمرهم،وتكره أن تعرّضهم للحرب وويلاتها،لذلك تتروّى ولا تستعجل الأمور فتتخذ أسلوب الملاطفة والملاينة،وتخبر قومها بما عزمت عليه فتقول:﴿**وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ**﴾[38]

بهذا الأسلوب الراقي في حكم الشعوب وسوسها تظهر لنا ملكة سبأ امرأة رزينة عاقلة قادرة على تدّبر شؤون مملكتها بكل حكمة،وهي عادلة تقيم حكمها على مبدأ الشورى،ثم تخاف على قومها مما قد يلحقهم من الحرب وما ينجرّ عنها،فلا تدفعهم إليها ولا تجعل الخيار العسكري خيارها الأوّل.إنّ القصص القرآني وهو يعرض هذا النموذج فإنه يزكّي من خلاله كلّ هذه الصفات الإيجابية المنبثقة أساسا عن التعقل والحكمة في اتخاذ القرارات،وهو الأمر الذي يجعل هذه الصورة تحظى بالقبول.

وإنّ الحكمة التي جعلت هذه الملكة تنجح في إدارة شؤون مملكتها ما كانت لتتخذلها عندما يتعلّق الأمر بالفطرة السليمة والعودة إلى دين الحقّ لنيل خير الدنيا والآخرة،وهو ما حدث عندما استقدمها سليمان إليه كما تعرضه الآية الآتية:﴿**قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[39]. وهكذا تقودها حكمتها للاعتراف بخطئها وتسرع في تصحيحه وتسلم لله ربّ العالمين.

المنارة للاستشارات
www.m

أما النّموذج الثاني فتمثله امرأة فرعون،وهي المرأة التي تربّى في كنفها سيدنا موسى عليه السلام.وقد كانت أنموذج المرأة المتحرّرة فكريا،حيث تراءى لها صدق دعوة موسى،فاستجابت لنداء قلبها وعقلها،وأعلنت إيمانها بإله موسى وكفرت بفرعون غير آبهة به وبعذابه.وقد ذكرها الله وجعلها مثلا للمؤمنين الصّادقين حيث قال تعالى:﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾[40].

فامرأة فرعون لم يكن قرارها ناتجا عن اندفاع عاطفي ومساندة للشّخص الذي ربته صغيرا،واتخذته ولدا،وإنما كان ناتجا عن طول تفكير وتدبّر وتقليب للأمر على وجوهه المختلفة،إلى أن قادها فكرها إلى التوحيد والتسليم بدعوة موسى.لقد استطاعت((أن تحرّر فكرها ووجدانها من كلّ الأواصر والمؤثرات والقيود،فترفض أن تسير في ركاب زوجها،وأن تنساق في تيار المجتمع الذي تعيش فيه،بل تعلن عن موقفها في ثبات وإيمان،بعد أن اتضح لها ضلال فرعون وقومه،وتبيّن لها الحق في دعوة موسى))[41].

لقد عكست بسلوكها هذا نموذج المرأة الحرّة ذات الشّخصية المستقلة التي تتّخذ القرار بإرادة فردية نابعة من قناعة خاصّة وتامّة،شخصية تتّخذ التوجّه السّليم،وإن كان في الاتجاه المعاكس لزوجها.إنّها تتحمّل مسؤوليتها الكاملة،إذ هدتها حكمتها وقادتها بصيرتها إلى اتباع نور الحق دون أن تكون تابعة في ذلك لأحد حتّى لزوجها أقرب النّاس إليها،إذ((لم يضللها زوره وبهتانه،ولم يخفها بطشه وسلطانه،فما استبان لها الهدى من دعوة موسى،وما أن اطمأنّ قلبها إلى ما يدعو إليه حتى خرجت عن سلطان فرعون،وتحرّرت من دائرة فلكه الذي كانت تدور فيه الدّولة كلّها معه،وبهذا استحقت أن تكون مثلاً مضروبًا للعقل الحرّ والإرادة المتحرّرة،كان لها هذا الذكر الكريم الذي ذكرها الله سبحانه وتعالى به في القرآن الكريم))[42].

-العفة والطهارة:

المنارة للاستشارات
www.r

الطهارة في معناها اللّغوي نقيض النّجاسة،والتطهّر:التنزه والكفّ عن الإثم وما لا يجمل،وهو أيضا التنزه عمّا لا يحل[43].وتتجلى هذه الصّفة في شخصية مريم التي أنبتها الله نباتا حسنا،وأعدّها لتكون نموذج الفتاة التقية الطاهرة المنقطعة عن كلّ الظروف التي يمكن أن تؤدي بفتاة إلى الانحراف[44].ويشهد لها القرآن الكريم بذلك فيقول:﴿**وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ**﴾[45]

إنها مريم ابنة عمران الزاهدة العابدة المنقطعة للعبادة والتأمّل في ملكوت الله،يتمثل لها الوحي بشرا سوّيًا فيصيبها الهلع والخوف وتضطرب نفسها لكنّها تؤوب إلى رشدها وتلجأ إلى خالقها،ويصوّر لنا القرآن حالتها النّفسية تلك فيقول في محكم تنزيله:﴿**قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا** قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾[46]

ففي هذه الآيات من سورة مريم((يظهر جانب من خصائص الأنوثة متمثّلا في عذراء طاهرة متبتلة يمتلكها الرّعب والهلع،إذ تجد نفسها في خلوة مع الملك الذي تمثّل لها رجلا،فتستثير فيه مشاعر التقوى والخوف من الله،ثم تدركها شجاعة الأنثى المهدّدة في عرضها وشرفها،لمّا صارحها بما يخدش سمع العذراء الخجول))[47].

لقد اتصفت مريم بكلّ صفات الزّاهدين العابدين،غير أنّ صفة واحدة طغت على صورتها وهي التأكيد على عفّتها وطهارتها،ذلك أنّ أحداث حياتها لم تكن عادية بل تموضعت في أحداث خارقة وصلت حدّ الاتهام والتشكيك في عفّتها وشرفها،وهو أعز ما تملكه المرأة خاصّة إذا كانت تحظى بمكانة عند قومها.لذلك كان انجابها بلا زواج هو المحرّك الأساس للطّعن في شرفها:﴿**فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا** يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾[48].

المنارة للاستشارات
www.m

لقد كانت شخصية مريم،وبهذه الصّفة،شخصية فريدة ونموذجا لا يتكرّر على امتداد الزمان والمكان،لأنها كانت وبكلّ اختصار الشّخصية التي اصطفاها الله تعالى لتكون برهانا ساطعا ودليلا قاطعا على قدرته في الخلق.لذلك ((فشخصية مريم رغم خصوصيتها وعمق وجودها لم تكن مقصودة لذاتها،وإنما قصد بها إثبات بشرية عيسى وبيان طيب المنشأ والمحضن المصطفى لهذا النبي الكريم ..وقد بقيت مريم رغم الحوادث التي مرت بها والظروف التي طرأت عليها نموذجا للمرأة المؤمنة،وهو نموذج أعدّت لتكونه سلفا))[49].وهو الأمر الذي سعى القرآن الكريم لإثباته؛حيث نفى نسب عيسى إلى الله وأثبته إلى أمّه في أكثر من موضع منها قوله تعالى:﴿**ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ**﴾[50].

ومن خلال قصة مريم تبدو العفّة والطّهارة ملمحا من ملامح صورة المرأة الإيجابية التي قبلها القرآن الكريم،ودعا كلّ امرأة إلى الاتصاف بها من خلال تزكيته لها.

-صورة المرأة السلبية:

عرضنا،فيما تقدّم،بعض ملامح صورة المرأة الإيجابية كما جسّدها القرآن الكريم من خلال قصصه.وقولنا بإيجابية صورة المرأة لا يعني أنها صفة شاملة عكست حضورها كلّه في القصص القرآني وبذلك حظيت بالقبول المطلق،وإنما قدّم القصص أيضا وجه الصورة الآخر ممثّلا في تلك الصفات السلبية التي استحضرها القرآن الكريم،لا للاقتداء بها وإنما للاتعاظ وأخذ العبرة منها،ثمّ الابتعاد عنها باعتبارها مرفوضة.ومن الصّفات التي تدخل في تشكيل ملامح صورة المرأة السلبية/المرفوضة نذكر:

-الخيانة:

تعدّ الخيانة من الصّفات السلبية التي ينكرها العرف والدّين والحس الإنساني السّليم،وهي ممجوجة في التعامل بين النّاس ولا سيما إن كانت بين الزّوجين.وهي من الصّفات السّلبية التي أوردها القصص القرآني،في موضع واحد، منسوبة إلى امرأتين اثنتين لم تكونا من عامّة النّاس وإنما كانتا زوجا نبيين من أنبياء الله الصالحين.

وردت هذه الصّفة عند الحديث عن قصّة سيدنا نوح وقصّة سيدنا لوط،قال الله تعالى:﴿**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ**

المنارة للاستشارات
www.m

مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾[51].

والخيانة الواردة في هذه الآية لا تأخذ معنى عامًّا،وإنما تنحصر في الجانب الديني،أي عدم الاتباع،ولا تتعداه إلى مجال آخر.والمقصود من خيانة امرأة نوح وامرأة لوط أنهما((خانتاهما في الدّين فلم يتبعاهما فيه.وليس المراد أنهما كانتا على فاحشة حاشا وكلا ولمّا.فإنّ الله لا يقدّر على نبيّ أن تبغي امرأته كما قال ابن عباس وغيره من أئمة السلف والخلف:ما بغت امرأة نبيّ قطّ))[52].

إنّ ما يلفت النّظر في هذه القصّة هو أن تكون المرأة على طرف نقيض من زوجها،العبد الصّالح الذي استجاب لنداء ربّه فراح يدعو إلى التوحيد،ولا يلقى من قومه إلاّ الصدّ والعناد والسّخرية،وتكون زوجته وأقرب النّاس إليه،من المكذّبين بدعوته،والمحبطين لعزيمته.إنّ صورة هذه المرأة توحي بالاشمئزاز والتصرف المرفوض وغير الطبيعي؛إذ ما كان لها أن تقف هذا الموقف لأنّه ((موقف تبدو فيه المرأة وكأنّها خارجة عن طبيعتها،منحرفة عما ينبغي أن يكون منها من القيام وراء رجلها تشدّ أزره،وتأخذ بناصره،وخاصّة إذا كان بالمكان الذي يدعو فيه إلى الخير..ثم لا يجد من النّاس إلاّ نفورا منه،واستخفافا به،وعدوانا عليه،إنّها إن لم تنتصر له في شخصه،فلتنتصر له في شخص رجلها وأبي أبنائها،ولكّنها مع هذا انسان له عقل،وله إرادة،وله مُتجه يأخذه بما يراه عقله،وتدفعه إليه إرادته))[53].

ويخبرنا القصص القرآني أنّ نوحا عليه السلام دعا قومه سرا وجهرا،وحاول أن يقنعهم بفساد معتقدهم بكلّ الطرق لكنّه لم يفلح على الرّغم من طول بقائه بينهم؛فالله تعالى يقول:﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ**﴾[54].ولمّا يئس منهم دعا الله أن يهلكهم فحقّ عليهم العذاب وأغرقهم الطوفان،قال الله مؤكدا نهايتهم:﴿**فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ**﴾[55].

وامرأة نوح لم يرد ذكرها إلاّ في الموضع السابق،ولا نجد لها ذكرا في مختلف السّور التي تناولت قصة نوح عليه السلام.وقد صوّر لنا القصص نوحا وهو يدعو ابنه إلى أن يركب في السفينة لكنه لا يستجيب له لأنه كان من الكافرين ثم يجادل نوحا ربه في ابنه الذي

المنارة للاستشارات
www.m

اعتقده من أهله ولكن يخبره الله أنه ليس من أهله وتكون نهايته الغرق مع قومه الكافرين.أمّا زوجته فلا نجد لها أثرا وكأنّ القرآن الكريم لا يريد لها ذكرا،فهي من النماذج المرفوضة والصور السلبية.والقرآن الكريم إن لم يفسح لها إلاّ مجالا ضيقا وذكرا عابرا فإنّه لا يريد لهذا النموذج أن يتواجد على وجه الحياة وإقصاؤه من القصص هو دعوة ضمنية لإقصائه من الحياة.

ويورد القصص القرآني صفة الخيانة منسوبة إلى امرأة أخرى هي امرأة لوط،التي كانت كسابقتها،واقفة مع الجهة المعادية لزوجها لوط النبيّ الصالح،الذي استنكر من قومه اتيانهم الفاحشة فراح يدعوهم إلى العدول عن ذلك والرجوع إلى الفطرة السليمة.وينقل لنا القصص جوانب من هذا الأمر في قوله تعالى:﴿**وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ** إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ **وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ** فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾[56].فلوط ينكر على قومه اتيانهم الفاحشة مبيّنا شناعتها،وأنهم المبتدعون لها،ويحدّدها في اتيان الرّجال شهوة دون النّساء،وهم بذلك متجاوزون لحدود العقل والذوق والشّرع والعرف[57].

ولمّا ضاق بهم درعا،ولم يجد منهم استجابة وتمادوا في الإساءة ما كان منه إلاّ أن تضرع إلى ربّه قائلا: ﴿**رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ** فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴾[58].وتمّ وعد الله ونجا لوطا وأهله إلاّ امرأته؛حيث قال تعالى:﴿**وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ** إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾[59].وهكذا تؤكد الآيات على نجاة لوط وأهله وهلاك زوجته التي وصفها بالخيانة لزوجها.والقصص إذ يورد لها هذه النهاية المأساوية فإنه يؤكّد على نبذه لهذه الصفة ورفضه إياها على اعتبار أنها لا تؤدي إلاّ إلى الهلاك في الدنيا والآخرة.

-الكيد:

الكيد لغة هو الخبث والمكر.وهو الاحتيال والاجتهاد.وهو التدبير بباطل أو حقّ[60].وعليه فالكيد مرتبط بحسن التدبير بغض النّظر عن المجال الذي يشمله،ويتحدّد نوعه

المنارة للاستشارات
www.r

تبعا للمجال الذي يشغله.وقد حضرت صفة الكيد في القرآن الكريم بوجهيها الإيجابي والسلبي.فمن الإيجابي ما ورد منسوبا إلى الله وهو تدبير إلهي غايته مساعدة الصالحين،ومثال ذلك قوله تعالى:﴿**كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ**﴾[61].وفي المقابلة بين كيد الله وكيد الآخرين في قوله تعالى:﴿**إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا** ﴾[62] ومنسوبا إلى الشيطان في قوله:﴿**فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا**﴾[63].

كما نُسب إلى الرّجال أيضا كما في قوله:﴿**قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ**﴾[64]

وتأكيدا لما سبق،فـ((الكيد صفة مذكورة في مواضع كثيرة من القرآن،بعضها منسوب إلى الإنسان وبعضها منسوب إلى الشّيطان،ومن الرّجال الذين نسبت إليهم صالحون مؤمنون،ومنهم كفرة مفسدون،بل وردت وصفا لله سبحانه وتعالى مع المقابلة بين الكيد الإلهي وكيد المخلوقات،وبغير مقابلة في آيات))[65].

أمّا إلحاق صفة الكيد بالمرأة فلم يكن إلاّ في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم،وكلّها في سورة يوسف. وقد اعتبر الله عزّ وجلّ هذه القصة من أحسن القصص حيث قال:﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ**﴾[66].وليس المقصود بأحسن القصص هو تفضيل قصة على قصة في القرآن لأنّ هذا يستوجب القول بالتفاوت في الإعجاز وإنما المقصود هو ارتياح النّفوس لبعض القصص[67].

وتعدّ قصة يوسف القصة الوحيدة التي ورد ذكرها مجملة في سورة واحدة،جسّدت أحداثها كاملة من البداية إلى النهاية على مدار آياتها كلّها باستثناء الآيات الثلاث الأولى منها.وتمثل قصة يوسف((النموذج الكامل لمنهج الاسلام في الأداء الفني للقصة بقدر ما تمثل النموذج الكامل لهذا المنهج في الأداء النفسي والعقيدي والتربوي،ومع أنّ المنهج القرآني واحد في موضوعه وفي آدائه،إلاّ أنّ قصة يوسف تبدو كأنّها المعرض المتخصص في عرض هذا المنهج من الناحية الفنية للأداء))[68].

وقد لقيت هذه القصّة كثيرا من الاهتمام في أوساط الدّارسين والباحثين((ولعلّ اهتمام النّاس بها هو لتصويرها علاقة جنسية مستحيلة بين ذكر وأنثى أو قل بين نبيّ معصوم

المنارة للاستشارات
www.m

وامرأة عاشقة))[69].والحقيقة أن هذه القصة قد ألمت ((بألوان الضعف البشري،بما فيها لحظة الضعف الجنسي،ودون أن تزوّر أي تزوير في تصوير النفس البشرية بواقعيتها الكاملة في هذه المواقف ودون أن تغفل أية لمحة حقيقية من لمحات النّفس أو الموقف،فإنها لم تسف قط لتنشئ ذلك المستنقع المقزّز للفطرة السليمة))[70].

وفيما يأتي سنقف على صورة المرأة التي اتصفت بالكيد كما قدّمها القصص القرآني،والتي ارتبطت بقصة يوسف،حيث نجد نموذجا واحدا تصنعه شخصيات متعدّدة.

الموضع الأوّل: نسب الكيد أوّلاً إلى امرأة العزيز،وجرى ذلك على لسان زوجها عزيز مصر.فبعد أن راودت يوسف عن نفسه وأبى وولّى هاربا أمسكته من قميصه،ولمّا وجدت سيدها عند الباب ألقت التهمة على يوسف فدافع عن نفسه بقوله هي راودتني عن نفسي،وكان دليل البراءة مرهون بالقميص﴿ **فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ**﴾[71].

الموضع الثاني:جرت الصّفة على لسان يوسف ونسبها إلى مجموعة من النّساء،اللواتي تربطهن علاقة بامرأة العزيز

واللواتي سرن في مسار سيّدة القصر،فما كان من يوسف إلاّ أن﴿**قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ** فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[72].

وبعد أن سُجن لسنوات،يعود يوسف يبحث عن دليل براءته ليبرّئ ساحته ممّا اتهم به زورا وبهتانا،ويجد الفرصة المناسبة لذلك ويطلب من الملك أن يتبين حقيقة أمر سجنه﴿**وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ**﴾[73]

فهذه القصة ترصد النفس البشرية بمختلف أهوائها بكلّ صدق وواقعية،فهي تعرض((نموذج امرأة العزيز بكلّ غرائزها ورغباتها واندفاعاتها الأنثوية،كما تصنعها وتوجهها البيئة المصرية الجاهلية في بلاط الملوك إلى جانب طابعها الشّخصي الخاص الواضح في تصرفها،وضوح انطباعات البيئة،ونموذج النسوة في الطبقة العلية في مصر الجاهلية،ومنطقها

المنارة للاستشارات
www.r

كما يتجلى في كلام النسوة عن امرأة العزيز وفتاها،وفي إغرائهن كذلك ليوسف وتهديد امرأة العزيز له في مواجهتهن جميعا))[74].

الموضع الثالث:وردت فيه الصفة على لسان امرأة العزيز ذاتها،وبعد أن شهدت النسوة ببراءة جانبه جاء دورها و﴿**قالت امرأت العزيز الآن حصحص الحقّ أنا راودته عن نفسه وإنه من الصادقين ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأنّ الله لا يهدي كيد الخائنين**﴾[75].وبذلك تتجاوز موقفها الأوّل الذي كانت تدين فيه يوسف،وتتجاوز كبرياءها وتنصاع للحق فتقرّ بمراودتها له،وأنّه من الصادقين.

وتمثّل امرأة العزيز في هذه القصة صورة الأنثى التي((يستبد بها الحب ويغلبها الهوى فتتبع داعيه،وتميل معه،وهي في هذه السبيل تندفع بكلّ عاطفتها،وتستخدم كلّ ما أوتيت من دهاء ومكر))[76].ولهذا نجدها تتفنّن في صنع مكائدها التي تأخذ مساحة ضمن أحداث القصة ونرصدها كالآتي:

-كيدها مع يوسف حينما راودته عن نفسه وهيأت كل الأسباب لذلك استجابة لعاطفتها.

-كيدها مع زوجها حين وجداه بالباب فبادرته مثيرة للغيرة والنخوة بقولها ما جزاء من أراد بأهلك سوءا حفاظا على صورتها الزوجية.

-كيدها حين اقترحت على زوجها أن تكون عقوبته السجن أو العذاب الأليم حماية لحبها.

-كيدها مع نسوة المدينة عندما هيأت لهنّ ذلك المتكأ ودفعتهن إلى قطع أيديهن انتصارا لكبريائها.

إنّ صورة المرأة بين القبول والرّفض توحي بوجود مفارقة،وسنحاول الوقوف على هذه المفارقة في النماذج التي قدمت سابقا؛حيث تظهر المفارقة كما يأتي:

-ملكة سبأ/امرأة العزيز:فملكة سبأ استطاعت أن تحكم زمام مملكتها وكانت مثال المُلك العادل،في حين عجزت امرأة العزيز أن تملك زمام نفسها فتكبح جماحها وتتحكّم في شهواتها.

-امرأة فرعون/امرأة نوح وامرأة لوط:عاشت امرأة فرعون في بيت طاغية متجبّر يدّعي الربوبية،ومع ذلك استطاعت أن تنجو بدينها وتستجيب لنداء الحق،ودعت ربّها أن يبني لها

المنارة للاستشارات
www.m

قصرا في الجنّة.أما امرأة نوح وامرأة لوط فكانتا في بيت نبوّة بل زوجتا نبيين إلاّ أنهما كفرتا وكان مصيرهما الهلاك.

وبعد عرضنا لصورة المرأة بين القبول والرّفض كما قدّمها القصص القرآني نصل إلى تقديم النتائج التي أسفرت عنها هذه الورقة البحثية،وهي كالآتي:

-يغيب عن صورة المرأة في القصص القرآني الجانب الجسدي،إذ إنّ القرآن الكريم لا يحفل بهذا الجانب ولا يعطيه كبير أهمية،وكأنّ رسالة الإنسان في الكون لا تتوقّف على وجوده الجسدي،بل على وجوده النفسي وما يكرّسه من صفات ترتقي بالإنسان سواء كان ذكرا أو أنثى.

-إنّ عدم تحديد صورة المرأة بصفاتها الجسدية يتماشى والتوجّه العام للإسلام وكتابه القرآن،فقد أبعد المرأة عن الحسية وفي ذلك إعلاء لمكانتها؛حيث جعل قيمتها لا ترتبط بالجسد،وإنما تمتدّ إلى جوانب أخرى تكون كفيلة بصنع نماذج بشرية فاعلة في المجتمع كملكة سبأ وامرأة فرعون.

-مادة القصص القرآني مستمدة من الواقع والحقيقة،وهي السّمة التي انعكست على شخصياته بصفة عامة والمرأة بصفة خاصة.فالقصص القرآني لم يكن يقدّم صورة خيالية للمرأة بعيدة عن الواقع،بل صورة تنسجم والنّفس البشرية بخيرها وشرها،لذلك لا نجد القصص القرآني يحصرها في جانب مثالي فقط،وإنما يقدّمها ببعديها الايجابي والسلبي.

-تتماشى صورة المرأة مع الغرض العام للقصص القرآني،والدّعوة الإسلامية تقوم على الأمر والنّهي،والإسلام يلزمنا بإتباع أوامره والابتعاد عن نواهيه،وكذلك جاءت صورة المرأة يتجاذبها القبول والرّفض.

-نموذج المرأة المقبول مثّلته الحكمة والعفّة.وذلك من خلال صورة المرأة العاقلة(الحكيمة) التي لا يحول جنسها دون حكمتها فتكون على المستوى الجماعي قادرة على قيادة قومها وإيصالهم إلى بر الأمان.وعلى المستوى الفردي حينما تكون مؤهلة لاتخاذ القرار السليم الذي قد تخالف فيه حتّى زوجها كامرأة فرعون التي كان خيارها أن تكون مع الله وتضمن الفوز بالجنة بغض النظر عمّا ينتظرها في الدنيا.وكذلك صورة العفيفة الطاهرة التي تصون عرضها وشرفها وتحفظه من كلّ دنس،وتبعده عن كلّ شبهة.

المنارة للاستشارات
www.m

-نموذج المرأة المرفوض تجسّد من خلال صفتين هما:الخيانة والكيد.وارتبطت الخيانة بالخيانة في الدّين،ومثّلتها امرأة نوح وامرأة لوط،وفيه اتخذت المرأة مسارا خاطئا،فعلى الرّغم من كونهما زوجتي نبيين صالحين إلا أنّهما عجزتا عن إدراك الحقيقة وكانت نهايتهما الهلاك مع الكافرين.أما الكيد فمثلته امرأة العزيز حين غلبتها أهواء نفسها،وسيطرت عليها النفس الأمّارة بالسوء فراحت تتهاوى في درك الرذيلة إلى حين.

-إنّ صورة المرأة التي قدّمها القصص القرآني يتجاذبها القبول والرّفض مستوحاة من أحداث الماضي لكنّها لا تقف عند حدود الماضي فصلاحيتها لا تحدّ عبر الزمان والمكان،وبقاؤها مرهون ببقاء مصدرها القرآن الكريم،وم[77]ا حكم به كتاب الله استحسانا أو استهجانا لا يتغيّر ولا يتبدّل.

المنارة للاستشارات
www.

الهوامش:

[1] -فهد خليل زايد:أسرار القصة القرآنية.ط1،دار يافا،عمان،الأردن،2009،ص 28.

[2] -يوسف،الآية 05.

[3] -القصص،الآية 25.

[4] -ابن منظور(أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الافريقي المصري):لسان العرب،مج 12،ط 6،دار صادر،بيروت ،2008 ،ص 120.

[5] -المرجع نفسه،ص 120.

[6] -النساء،الآية 164.

[7] -طه،الآية 99.

[8] -هود،الآية 120.

[9] -القصص،الآية 03.

[10] -هود،الآية 100.

[11] -محمد ،الآية 31.

[12] -عبد الكريم الخطيب:القصص القرآني في منطوقه ومفهومه.مع دراسة تطبيقية لقصتي آدم،ويوسف،ط 2،دار المعرفة،بيروت،لبنان،1975،ص 45.

[13] -بغدادي بلقاسم:المعجزة القرآنية،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،1992،ص66.

[14] -يوسف،الآية 111.

[15] -فهد خليل زايد :أسرار القصة القرآنية،ط 1،دار يافا ،عمان،الأردن،2009،ص 11.

[16] -سيد قطب:التصوير الفني في القرآن،دار الشروق،القاهرة،مصر،د.ط،د.ت،ص 117.

[17] -فضل حسن عباس:قصص القرآن الكريم،ط 3،دار النفائس للنشر والتوزيع،الأردن،2010،ص 43.

[18] -التهامي نقرة:سيكولوجية القصة في القرآن،الشركة التونسية للنشر والتوزيع،تونس،1971،ص90.

[19] -سيد قطب:التصوير الفني في القرآن،ص154.

[20] -عيد سعد يونس:التصوير الجمالي في القرآن الكريم،ط 1،عالم الكتب،القاهرة،مصر،2006،ص 194-195.

[21] - بغدادي بلقاسم:المعجزة القرآنية،ص 67.

[22] -عبد الكريم الخطيب:القصص القرآني في منطوقه ومفهومه،ص 41.

[23] -التهامي نقرة:سيكولوجية القصة في القرآن،ص 401.

[24] -التهامي نقرة:سيكولوجية القصة في القرآن،ص 360.

[25] -عبد الكريم الخطيب:القصص القرآني في منطوقه ومفهومه،ص 397.

[26] -التهامي نقرة:سيكولوجية القصة في القرآن،ص 406.

[27] -عبد الكريم الخطيب:القصص القرآني في منطوقه ومفهومه،ص116.

[28] -التحريم،الآية 12.

[29] -مريم،الآية 28.

[30] -آل عمران،الآية 33.

المنارة للاستشارات

www.r

[31] -آل عمران،الآية 42.
[32] -عبد الكريم الخطيب:القصص القرآني في منطوقه ومفهومه،ص117.
[33] -عبد الكريم: ....ص 106.
[34] -عبد الكريم الخطيب:في القصص القرآني...ص106.
[35] - النمل،الآية 22-24.
[36] -النمل،الآية 32.
[37] -النمل،الآية 34.
[38] -النمل،الآية 35.
[39] -النمل،الآية 44.
[40] -القصص،الآية 11.
[41] -التهامي نقرة:سيكولوجية القصة في القرآن الكريم.ص 401.
[42] -عبد الكريم الخطيب:القصص القرآني في منطوقه ومفهومه،ص 106.
[43] -ابن منظور:لسان العرب،مج 09،ص 151-152.
[44] -نزيه محمد اعلاوي:الشخصيات القرآنية،ط 1،دار صفاء للنشر والتوزيع،عمان،الأردن،2006،ص 328.
[45] -مريم،الآية 12.
[46] -مريم،الآية 18-23.
[47] -التهامي نقرة:سيكولوجية القصة في القرآن،ص 402.
[48] -مريم،الآية 27-28.
[49] -نزيه محمد اعلاوي:الشّخصيات القرآنية،ص 329.
[50] -مريم،الآية 34.
[51] -التحريم،الآية 10.
[52] -ابن كثير(أبو الفداء الحافظ):قصص الأنبياء من القرآن والأثر،تح صدقي جميل العطار،ط 1،دار الفكر،بيروت، لبنان،2014،ص 168.
[53] -عبد الكريم الخطيب:القصص القرآني في منطوقه ومفهومه،ص 107.
[54] -العنكبوت،الآية 14.
[55] -الأعراف،الآية 64.
[56] -الأعراف،الآية 80-83.
[57] -حسن فضل عباس:قصص القرآن الكريم،ص 356.
[58] -الشعراء،الآية 169-171.
[59] -الصافات،الآية 133-135.
[60] -ابن منظور:لسان العرب،مج 13،ص 141.
[61] -يوسف،الآية 86.
[62] -الطارق،الآية 15-16.
[63] -النساء،الآية 76.
[64] -يوسف،الآية 05.

المنارة للاستشارات
www.r

[65] -عباس محمود العقاد:المرأة في القرآن، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع،د.ط،د.ت،ص 13.

[66] -يوسف،الآية 03.

[67] -محمود المصفار:سميائية القرآن بين الحجاج والإعجاز،شركة المنى للنشر والتوزيع،صفاقس،تونس،د.ط،د.ت،ص 170.

[68] -فهد خليل زايد:أسرار القصة القرآنية،ص 95-96.

[69] -محمود المصفار:سميائية القرآن بين الحجاج والإعجاز،ص 166.

[70] -فهد خليل زايد:أسرير القصة القرآنية،ص 97.

[71] -يوسف،الآية 28.

[72] -يوسف،الآية 33-34.

[73] -يوسف،الآية 50.

[74] -فهد خليل زايد:أسرير القصة القرآنية،ص 96.

[75] -يوسف،الآية 51-52.

[76] -عبد الكريم الخطيب:القصص القرآني في منطوقه ومفهومه،ص 110.

المنارة للاستشارات

www.m